سعاد: لماذا يا ربّ؟

يومٌ دمشقيٌّ غير عاديٍّ الذي استيقظت فيه سعاد مع أولادها وزَوجها قاصدين المدرسة والعمل. ما غير العاديِّ؟ لقد اصطبغ صباح ذلك اليوم بدماء أبناء المدينة، ورسمَتْ أشلاءُ أطفال الوطن على جدرانه أحلَكَ لوحةٍ يمكن أن تُرسم بريشة الغدر والحقد الأسود! أهو ظلام الحقد؟ لا أفهم، لكن يبقى السؤال الذي لا إجابة عنه: لماذا الأطفال والنساء هم مَن يدفعون ثمنَ ألوان تلك اللوحة البغيضة؟

سعاد طبيبة أربعينيَّة جميلة وأمٌّ لفتاة مراهقة وشابٍّ على أعتاب الرجولة، كان هو أحد معالم تلك اللوحة الرهيبة...استيقظَتْ على صوت التلفاز المستمرِّ منذ ثلاث سنين دون توقُّف يصف الجرائم وأحداث البلد، فمن حمص إلى درعا إلى حلب- كلٌّ له صفحته في نشرة الأخبار.

خطر على بالها ذلك الصباح أن تبقى في المنزل مع أولادها وزوجها دون الذهاب إلى عملها، لكنَّها سمعت في عقلها صوتًا يقول حتَّى

متى سنبقى في جحورنا مختبئين؟ وبوصفها امرأةً سوريَّةً ينبض في عروقها عنفوانُ زنوبيا وتحدِّيها، قرَّرت أن تذهبَ إلى عملها رغم المخاطر، ودفعت أولادَها للذهاب إلى المدرسة...قالت لزوجها المتردِّد: لن يرغمونا على الموت داخل بيوتنا قهرًا، بل علينا أن نتحدَّى ونتابع حياتنا. وهكذا افترق الأربعة كلٌّ إلى شأنه.

نصف ساعة كانت كافيةً لتقلبَ حياة سعاد وأفراد عائلتها، لتبدأ صفحةً جديدةً عنوانها "لماذا؟" كان ازدحام السيَّارات وجنون السائقين الذي يعبِّر عن الخوف من الرصاص الطائش ومن القذائف الغادرة هو ما دفعها لتنزلَ من الباص مسرعةً حتَّى لا يفوتَها موعدُ عملها...وما هي سوى لحظاتٍ خاطفة حتَّى مزَّق الفضاءَ صوتٌ مرعبٌ هزَّ أرجاء دمشق القديمة...إنَّها قذائف الهاون تسقط على المارَّة والبيوت المجاورة...حتَّى المدارس لم تسلم...وكان لسعاد نصيبٌ من إحدى شظايا الغدر.

سقطت على الأرض وسقط آخرون حولها رجالًا يصرخون ونساء مرتاعات، أمَّا الأطفال فقد صار الشارع جدولًا تجري فيه دماءهم...بعد برهة عادت لتتذكَّر أنَّها هي الأخرى أصيبَت... لكن أين؟ شعورُ خدرٍ أحسَّت به...إنَّها يدي اليسرى...لم

تعُدْ لي...صرتُ ممزَّقة كخرقة بالية...صرخت: "أنقذوني!" لم يسمعها أحد؛ فطبول عرس الموت كانت تدقُّ قويَّةً على نحو أصمَّ الآذان. استطاعت أن تنهضَ حاملةً ما تبقَّى من يدها، وهُرِعَتْ إلى المستشفى الأقرب، لكنَّها أحسَّته بعيدًا جدًّا!

أُجرِيَتْ لها الإسعافات اللازمة ثمَّ أُدخِلتْ غرفةَ العمليَّات المكتظَّة بالمصابين والأطبَّاء والعاملين لتخضعَ لعمليَّةٍ صعبةٍ ودقيقةٍ استفاقَتْ بعدَها على صوت الأطبَّاء يقولون: إنَّها تحتاج إلى جراحةٍ عاجلة وإلَّا ستفقد يدها...صرخت: "يا إلهي! لماذا؟ إنَّها يدي وأنا طبيبة، ولا أستطيعُ العملَ دون يدي...أرجوك ساعِدْني!"

لم تجدْ جوابًا عن أسئلة كثيرة دارت في ذهنها...لكنَّ أصواتَ زوجها وأولادها أعادَتها إلى الواقع...نظرت إليهم وسط دموعها ودموعهم...وقرأت أسئلتها ذاتها. لكنْ لا جواب! حاول زوجها أن يستحضرَ كلماتٍ يبثُّ بها رجاءً في قلبه قبل قلبها، لكنَّها كلماتٍ بلا أيِّ معنى!

في عينَي ابنها، قرأت الغضب والحَيرة...وسمعت صوتَه يصرخ: "أمِّي، أين الله؟ لماذا خَدعتِنا وقلتِ لنا إنَّه سيحمينا؟" لم تقوَ

سوى على صمتٍ كان أبلَغَ من الكلام. التفَتَتْ إلى زَوجٍ عاجز عن فعل أيِّ شيء...خرجَ زوجها مغادرًا الغرفة وما كانت لتعلَمَ أنَّ خروجه سيكون ليس فقط من الغرفة، بل من حياتها وحياة أولادها إلى الأبد! فبعد يومَين وقعَ هناك انفجارٌ هائلٌ قُربَ مكان عمله...سألت عنه فأجابوها: "نعم يا سعاد...ذهب حلمك الجميل...إنَّه في ذمة الله!"

وبعد يومَين من ذلك، أخبروها بأنَّ ابنَ أخيها الشابَّ المخطوفَ قُتِلَ هو الآخر ووُجِدَتْ جثَّته في أحد البساتين...لم يقوَ عقلُها بعد هذا على التفكير، وشعرت بأنَّها وفراشها قطعة واحدة... جنازة مشتركة كانت للأحبَّاء، وكم من الجنازات المشتركة التي أقيمَتْ للسوريِّين! لم تستطع أن تودِّعهم، لكنَّها صرخت بصوتٍ تردَّد صداه في أرجاء المستشفى: "وأنا يا إلهي...خذني معهم!" ثمَّ دخلت في غيبوبة...

استفاقتْ بعد ساعات لترى ابنتها تحضنها ودموعها تغمر وجهها. كانت همسات صوتها تأتي من بعيد إليها. "ماما...لا تذهبي... بقينا أنا وأخي. أرجوك ارجعي إلينا..." صحيح لم يأخذها الله مع مَن ذهبوا؛ ففي الحياة مَن ينتظرها وينتظر إصرارَها وتحدِّيها!

ابتسمت لولدَيها ابتسامة لمسا فيها عودتها إليهما، فبادلاها ابتسامًا كان له نور شمعة أضاء في عتمة الحَيرة.

بعد ثلاثة أيَّام كان الأطبَّاء يتشاوَرون لإجراء عمليَّة دقيقة احتمال نجاحها ضئيل. قرأتْ في عيونهم الخوفَ من المجازفة. فأعصاب اليد مقطوعة واحتمال بقائها ضئيل...أرادوا موافقتها لكنَّها رفضت، والخوف يكتب على شفتَيها "ماذا لو لم تنجح العمليَّة؟" كان قرارها هو الكلمةَ الفَصْل، واستسلمت لليأس والحزن القلق! نامت تلك الليلة بعد جهاد مرير مع المجهول... كيف ستبقى دون يد؟ ومَن سيعيل أولادَها؟ صباحًا أخبروها بأنَّ هناك صديقتَين تريدان زيارتها، فاستقبلَتْهما وقد سبق ترحيبَها سؤال صارخ: "لماذا، لماذا، لماذا؟"

قالت لها إحداهما: "لماذا يا سعاد لا أعلم. لكنِّي أعلم شيئًا واحدًا: أنَّ الله يرى ويسمع ويهتمّ. هو معك وينتظر منك كلمة واحدة: «تكلَّم يا ربّ، فإن أمتَك تسمع. أنا أصغي»". أغمضتْ عينَيها وللمرَّة الأولى صرخ قلبُها قبل شفتَيها: "تكلَّم يا ربّ، وأنا أصغي! هل أخضعُ للعمليَّة؟ أهناك أملٌ في الشفاء أم أنِّي سأفقد يدي؟ أرجوك أجبني!" كانت الاستجابة سريعةً؛ إذ

زال الخوف والقلق والحَيرة، وغمر قلبَها سلامٌ عجيب. نادَتِ الأطبَّاء المنتظرين، وقد أصابتهم الدهشة، وقالت إنَّها وافقت على الخضوع للجراحة، وإنَّ يدها ستُشفى. سألها أحد الأطبَّاء: "كيف عرفت؟"، فردَّت أنَّ السيِّد المسيح أكَّد لها ذلك! وأضافت: "لا تخافوا! فيده ستكون مع أيديكم". وهذا ما حدث، فبعد العمليَّة الصعبة عادت اليد تتحرَّك. وبدأت سعاد تخضع لعلاج فيزيائيٍّ وعادت إلى عملها. في نهاية هذا الكتاب سنكمل قصَّة سعاد.

حتَّى الآن ما زالت سعاد تبحث عن جوابِ السؤال: "لماذا كلُّ هذا؟" هل ستجد الإجابة؟ هل يستطيع حبقُّوق النبيُّ أن يتعاطفَ معها ويساعدها؟